طَوَالَ الطَّرِيقِ حَتَّى بَلَغْتُ بَيْتِيَ الصَّيْفِيَّ، وَلَمْ أَرَ أَيَّ شَيْءٍ غَيْرَ عَادِيٍّ؛ لِذَا قَضَيْتُ هُنَاكَ بِضْعَةَ أَيَّامٍ فِي مُحَاوَلَةٍ كَيْ أَهْدَأَ.

قُلْتُ لِنَفْسِي: «روبنسون! رُبَّمَا يَكُونُ رَدُّ فِعْلِكَ مُبَالَغًا فِيهِ، فَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْأَثَرُ هُوَ أَثَرَ قَدَمِي أَنَا، وَأَنَا لَمْ أَلْحَظْ أَنَّنِي تَرَكْتُهُ.» فَاسْتَجْمَعْتُ شَجَاعَتِي كُلَّهَا وَسِرْتُ عَائِدًا إِلَى الشَّاطِئِ لِأُلْقِيَ نَظْرَةً أُخْرَى، وَكَانَ الْأَثَرُ لَمْ يَزَلْ هُنَاكَ!

وَعِنْدَمَا وَضَعْتُ قَدَمِي بِجَانِبِ أَثَرِ الْقَدَمِ وَجَدْتُ أَنَّ أَثَرَ الْقَدَمِ ضِعْفُ حَجْمِ قَدَمِي تَقْرِيبًا! فَقُلْتُ: «هَذَا غَيْرُ مَعْقُولٍ!» وَبَدَأْتُ أَرْتَعِشُ وَأَتَصَبَّبُ عَرَقًا فِي ذَاتِ الْوَقْتِ. وَاسْتَغْرَقْتُ بِضْعَ دَقَائِقَ لِكَيْ أَسْتَجْمِعَ أَفْكَارِي، ثُمَّ جَرَيْتُ إِلَى الْمَنْزِلِ بِأَقْصَى سُرْعَتِي.

قَضَيْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مُؤَرَّقًا، أُفَكِّرُ فِي أَثَرِ الْقَدَمِ تِلْكَ. وَفِي نَوْبَةِ جُنُونٍ قَرَّرْتُ اقْتِلَاعَ كُلِّ مَحَاصِيلِي وَإِطْلَاقَ سَرَاحِ مَاعِزِي؛ وَبِهَذَا لَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ أَنَّنِي كُنْتُ هُنَا. وَطَلَعَ الصُّبْحُ، وَكَانَ الْيَوْمُ صَافِيًا وَمُشْرِقًا، وَوَجَدْتُ مَزْرَعَتِي مَا زَالَتْ بِأَكْمَلِهَا كَمَا هِيَ، وَعَرَفْتُ حِينَهَا أَنَّهُ لَا دَاعِيَ لِتَدْمِيرِ كُلِّ شَيْءٍ بَنَيْتُهُ، وَأَنَّنِي فَقَطْ فِي حَاجَةٍ لِأَنْ أَكُونَ حَرِيصًا.

مَرَّتْ سَنَتَانِ لَمْ أَرَ فِيهِمَا أَحَدًا، وَلَمْ يَظْهَرْ مَزِيدٌ مِنْ آثَارِ الْأَقْدَامِ عَلَى الرَّمْلِ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ وَيُبَاغِتْنِي فِي اللَّيْلِ، وَاسْتَمَرَّتِ الْحَيَاةُ كَالْمُعْتَادِ.

الفصل الثالث والعشرون

لَا دُخَانٌ وَلَا نَارٌ

مَرَّتْ سِنُونَ وَسِنُونَ، وَلَمْ يَتَغَيَّرِ الْكَثِيرُ عَلَى جَزِيرَتِي؛ فَالْأَمْطَارُ تَحِلُّ وَتَذْهَبُ، وَالشَّمْسُ تُشْرِقُ، وَاسْتَمَرَّتْ أَيَّامِي كَمَا انْقَضَتْ عَلَى مَدَى الْكَثِيرِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الشُّهُورِ، وَأَصْبَحْتُ أَهْوَى جَوْلَاتِي الصَّبَاحِيَّةَ الْبَاكِرَةَ، وَلَا يُسْعِدُنِي شَيْءٌ أَكْثَرُ مِنْ ذَهَابِي إِلَى مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ، لِأَرَى مَاعِزِي، وَأُلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى مَحَاصِيلِي.

وَبِنَفْسِ سُرْعَةِ هُطُولِ الْمَطَرِ، تَحَوَّلَ كُلُّ شَيْءٍ فِي لَحْظَةٍ؛ فَكُنْتُ أَسِيرُ نَحْوَ الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْجَزِيرَةِ ذَاتَ صَبَاحٍ عِنْدَمَا رَأَيْتُهُمْ: أَهْلَ الْجَزِيرَةِ! وَكَانَ هُنَاكَ أَعْدَادٌ هَائِلَةٌ مِنْ زَوَارِقِهِمْ عَلَى الشَّاطِئِ، وَكَانُوا مُنْشَغِلِينَ بِإِشْعَالِ نَارٍ عَظِيمَةٍ. اخْتَبَأْتُ وَتَابَعْتُهُمْ، وَتَسَاءَلْتُ مَاذَا أَفْعَلُ. وَبَدَلًا مِنَ الْهُرُوبِ عَائِدًا إِلَى الْمُخَيَّمِ، جَلَسْتُ وَفَكَّرْتُ فِي الْأَمْرِ بِعَقْلَانِيَّةٍ.

«لَقَدْ ظَلَلْتُ هُنَا مَا يُقَارِبُ الْعِشْرِينَ عَامًا، وَهُمْ لَمْ يَعْثُرُوا عَلَيَّ قَطُّ، بَلْ لَمْ يَرَوْنِي. فَإِذَا بَقِيتُ مُخْتَبِئًا، فَرُبَّمَا لَنْ يَجِدُونِي أَبَدًا.»

انْصَرَفْتُ خِلْسَةً مِنَ الشَّاطِئِ وَذَهَبْتُ لِلْبَيْتِ. وَأَرَدْتُ أَنْ أُكْمِلَ حَيَاتِي، لَكِنَّنِي عَرَفْتُ أَنَّ الْأُمُورَ لَنْ تَظَلَّ أَبَدًا عَلَى حَالِهَا.

اشْتَمَلَتْ طُقُوسِي الصَّبَاحِيَّةُ بِدَايَةً مِنْ هَذَا الْيَوْمِ فَصَاعِدًا عَلَى اتِّخَاذِ إِجْرَاءَاتٍ أَمْنِيَّةٍ، فَكُنْتُ أَصْعَدُ إِلَى قِمَّةِ التَّلِّ الْعَالِي وَمَعِي مِنْظَارِي الْقَدِيمُ لِأَنْظُرَ فِي الْأَرْجَاءِ. وَبَدَلًا مِنْ تَرَقُّبِ السُّفُنِ، كُنْتُ أَبْحَثُ عَنِ الزَّوَارِقِ. وَمَرَّتْ أَسَابِيعُ ثُمَّ شُهُورٌ، وَتَوَصَّلْتُ إِلَى أَنَّ جَزِيرَتِي هِيَ حَتْمًا بُقْعَةٌ لَا يَقْصِدُونَهَا غَالِبًا، وَرُبَّمَا تَمُرُّ سَنَوَاتٌ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَرْجِعُوا، وَرُبَّمَا لَا يَرْجِعُونَ أَبَدًا.

وَكَانَ أَهَمُّ مَا شَغَلَ بَالِي أَنْ تَكُونَ حَيَاتِي عَلَى الْجَزِيرَةِ مُتَوَارِيَةً عَنِ الْأَنْظَارِ قَدْرَ الْإِمْكَانِ. وَأَكْبَرُ مُشْكِلَةٍ كَانَ عَلَيَّ حَلُّهَا هِيَ كَيْفِيَّةُ إِشْعَالِ نَارٍ بِدُونِ دُخَانٍ. فَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ إِشْعَالَ النَّارِ فِي كَهْفِ التَّخْزِينِ الْبَارِدِ؛ فَهَذَا كَفِيلٌ بِأَنْ يُظْهِرَ مُخَيَّمِي بِأَكْمَلِهِ لِلْعِيَانِ. لَا، عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ كَهْفًا بَعِيدًا عَنْ مُخَيَّمِي، فَالدُّخَانُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الدَّلِيلُ الْوَحِيدُ عَلَى وُجُودِ إِنْسَانٍ آخَرَ يَعِيشُ عَلَى الْجَزِيرَةِ، وَبِدُونِ الدُّخَانِ رُبَّمَا لَا يَكْتَشِفُ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ أَبَدًا مُخَيَّمِي أَوْ مَنْزِلِي الصَّيْفِيَّ.

اسْتَغْرَقْتُ بِضْعَةَ أَيَّامٍ لِأَجِدَ الْمَكَانَ الْمُنَاسِبَ لِإِشْعَالِ النَّارِ. فَكَانَ الْكَهْفُ كَبِيرًا بِالْفِعْلِ، وَحِينَ سِرْتُ أَكْثَرَ بِدَاخِلِهِ، تَبَيَّنَ لِي أَنِّي أَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ فِي مُنْتَصَفِهِ بِيُسْرٍ.

بَعْدَ ذَلِكَ، حَدَثَ مَا أَخَافَنِي وَأَرْعَدَ فَرَائِصِي! فَبَيْنَمَا كُنْتُ أَسْتَكْشِفُ الْكَهْفَ، انْعَطَفْتُ حَوْلَ زَاوِيَةٍ وَإِذْ بِي وَجْهًا لِوَجْهٍ أَمَامَ عَيْنَيْنِ بَرَّاقَتَيْنِ تُحْدِّقَانِ فِيَّ. يَا لَهَا مِنْ صَدْمَةٍ! وَبَعْدَمَا الْتَقَطْتُ نَفَسِي، نَظَرْتُ مِنْ قَرِيبٍ لِأَجِدَ تَيْسًا عَجُوزًا وَمَرِيضًا رَاقِدًا فَحَسْبُ، لَا يُرِيدُ التَّحَرُّكَ وَلَمْ أُرْغِمْهُ عَلَيْهِ، فَقَطْ أَعْطَيْتُهُ شَرْبَةً مِنَ الْمَاءِ وَتَرَكْتُهُ لِحَالِهِ.

عُدْتُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي إِلَى الْكَهْفِ وَمَعِي بَعْضُ الْمُعَدَّاتِ: شُمُوعٌ وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى. وَكَانَ فِي الْكَهْفِ دِهْلِيزٌ طَوِيلٌ وَضَيِّقٌ يَقُودُ إِلَى حُجْرَةٍ جَمِيلَةٍ، تَلْمَعُ فِي الضَّيِّ بِأَضْوَاءٍ بَهِيَّةٍ مُتَلَأْلِئَةٍ.

وَفَكَّرْتُ: «رُبَّمَا يَكُونُ مَاسًا!» لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ وَقْتَ التَّفْكِيرِ فِي التَّنْقِيبِ!

وَلِأَنَّ الْكَهْفَ كَانَ آمِنًا وَجَافًّا، قَرَّرْتُ تَخْزِينَ مَا تَبَقَّى مِنْ بَارُودِي هُنَاكَ، مَعَ بَنَادِقِي الزَّائِدَةِ، كَمَا طَهَوْتُ مُعْظَمَ طَعَامِي بِالدَّاخِلِ، حَيْثُ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَرَى الدُّخَانَ الْمُتَصَاعِدَ مِنَ النَّارِ.

الفصل الرابع والعشرون

تَحَطُّمُ سَفِينَةٍ أُخْرَى

أَصْبَحَ الْآنَ مَنْزِلَايَ عَلَى الْجَزِيرَةِ مُؤَمَّنَيْنِ، وَكَهْفُ الطَّهْيِ عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ، وَمُرَاقَبَاتِي الْيَوْمِيَّةُ رُوتِينًا حَسَنًا، فَشَعَرْتُ بِالْأَمَانِ، لَكِنَّنِي ظَلَلْتُ مُنْشَغِلًا كَيْ أُبْعِدَ تَفْكِيرِي عَنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ.

وَفِي لَيْلَةٍ مُرْعِبَةٍ، سَمِعْتُ صَوْتَ إِطْلَاقِ مِدْفَعٍ مِنْ عَلَى بُعْدٍ، فَانْطَلَقْتُ إِلَى قِمَّةِ التَّلِّ الْعَالِي وَحَاوَلْتُ أَنْ أَرَى مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ، لَكِنَّ الظَّلَامَ كَانَ دَامِسًا.

أَسْرَرْتُ لِلَّيلِ: «لَا بُدَّ أَنَّهَا سَفِينَةٌ فِي خَطَرٍ! يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُنْقِذُونِي!»

أَشْعَلْتُ نَارًا عَظِيمَةً بِالرُّغْمِ مِنْ مَعْرِفَتِي أَنَّ فِعْلَ ذَلِكَ أَمْرٌ خَطِيرٌ.

وَتَمْتَمْتُ لِنَفْسِي بَيْنَمَا كُنْتُ أَتَسَلَّقُ بِسُرْعَةٍ لِأُبْقِيَ النَّارَ مُسْتَعِرَةً: «لَا بُدَّ أَنْ يَرَوْهَا! لَا بُدَّ أَنْ يَرَوْهَا!» وَكَانَتِ الرِّيَاحُ شَدِيدَةً مِمَّا جَعَلَ السَّيْطَرَةَ عَلَى النَّارِ أَمْرًا صَعْبًا. وَتَقْرِيبًا بَعْدَ لَحَظَاتٍ، سَمِعْتُ طَلْقَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مِنَ الْمِدْفَعِ، ثُمَّ بِضْعَ طَلَقَاتٍ مِنَ الْبَنَادِقِ، فَلَا بُدَّ أَنَّهُمْ رَأَوْا إِشَارَتِي!

حَلَّ الْفَجْرُ سَرِيعًا، وَبَدَأَ الضَّبَابُ يَنْقَشِعُ بَيْنَمَا أَدْفَأَتِ الشَّمْسُ الْجَزِيرَةَ. وَاسْتَطَعْتُ بِصُعُوبَةٍ تَمْيِيزَ وُجُودِ سَفِينَةٍ مِنْ عَلَى بُعْدٍ، فَرَكَضْتُ طَوَالَ الطَّرِيقِ بِاتِّجَاهِ النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنَ الْجَزِيرَةِ، وَنَزَلْتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ بِمُجَرَّدِ وُصُولِي لِلشَّاطِئِ. حُطَامٌ! أَوَّاهُ! هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ الْمَسَاكِينُ؛ تَحَطَّمَتْ سَفِينَتُهُمْ عَلَى نَفْسِ الصُّخُورِ الَّتِي كَادَتْ تُنْهِي حَيَاتِي مُنْذُ سَنَوَاتٍ كَثِيرَةٍ مَاضِيَةٍ. وَضَاقَ صَدْرِي حِينَ عَرَفْتُ اسْتِحَالَةَ وُجُودِ أَحْيَاءٍ. فَهُمْ أَرْسَلُوا الْإِشَارَةَ وَلَمْ تُنْقِذْهُمْ أَيُّ سَفِينَةٍ. وَفِي هَذَا الظَّلَامِ، بِالتَّأْكِيدِ لَمْ يَرَوْا جَزِيرَتِي.

وَانْتَحَبْتُ: «آهٍ لَوْ نَجَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَقَطْ، وَاحِدٌ فَقَطْ!» شَعَرْتُ بِالْوِحْدَةِ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ بِالذَّاتِ أَكْثَرَ مِمَّا شَعَرْتُ بِهَا طَوَالَ مَا يَزِيدُ عَنِ الْعِشْرِينَ عَامًا الَّتِي قَضَيْتُهَا بِمُفْرَدِي.

وَالِاخْتِيَارُ الْوَحِيدُ الَّذِي كَانَ عَلَيَّ اتِّخَاذُهُ وَقْتَئِذٍ هُوَ مَا إِذَا كُنْتُ سَأَسْتَخْدِمُ قَارِبِي وَمَعْرِفَةُ إِمْكَانِيَّةِ جَمْعِ الْمُؤَنِ مِنَ السَّفِينَةِ. وَفِي النِّهَايَةِ، قَرَّرْتُ أَنَّ الْأَمْرَ يَسْتَحِقُّ الْمُخَاطَرَةَ. لَكِنَّنِي انْتَظَرْتُ حَتَّى الصَّبَاحِ التَّالِي، عِنْدَمَا كَانَ الْمَدُّ مُنْخَفِضًا، فَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ أَنْ يَجْرِفَنِي التَّيَّارُ لِدَاخِلِ الْبَحْرِ.

مَا إِنِ اقْتَرَبْتُ مِنَ الْقَارِبِ، سَمِعْتُ كَلْبًا يَنْبَحُ، فَنَادَيْتُ عَلَيْهِ وَقَفَزَ مُبَاشَرَةً فِي قَارِبِي، وَكَانَ بِلَا شَكٍّ رَفِيقًا صَغِيرًا مُشَاكِسًا. وَوَجَدْتُ أَنَّ الْمِيَاهَ أَتْلَفَتِ الْكَثِيرَ مِنْ حَمُولَةِ السَّفِينَةِ، لَكِنَّنِي تَمَكَّنْتُ مِنْ أَخْذِ بَعْضِ الْقُدُورِ النُّحَاسِيَّةِ وَبَعْضِ صَنَادِيقِ الْبَحَّارَةِ وَبَعْضِ بَرَامِيلِ الشَّرَابِ وَبَعْضِ الْبَارُودِ. وَحَيْثُ إِنَّ السَّفِينَةَ كَانَتْ غَيْرَ مُسْتَقِرَّةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، عَمِلْتُ بِسُرْعَةٍ وَحَزَمْتُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى قَارِبِي الصَّغِيرِ.

وَتَطَلَّبَ الْأَمْرُ الْقِيَامَ بِالْعَدِيدِ مِنَ الرِّحْلَاتِ إِلَى السَّفِينَةِ لِنَقْلِ الْحَمُولَةِ إِلَى مُخَيَّمِي. يَا لَلثَّرَوَاتِ الَّتِي وَجَدْتُهَا عِنْدَمَا فَتَحْتُ أَخِيرًا الصَّنَادِيقَ، فَكَانَتْ مَمْلُوءَةً بِكُنُوزٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ! فَاحْتَوَى أَحَدُهَا عَلَى عُلْبَةٍ جَمِيلَةٍ مِنَ الزُّجَاجَاتِ الْمَمْلُوءَةِ بِأَشْرِبَةٍ ذَاتِ نَكْهَاتٍ، وَكَانَتْ لَذِيذَةً بِالْفِعْلِ. وَكَانَ هُنَاكَ صُنْدُوقٌ آخَرُ مَمْلُوءٌ بِالْحَلْوَى، وَأَيْضًا وَجَدْتُ فِي صُنْدُوقٍ آخَرَ قُمْصَانًا جَدِيدَةً، وَاحْتَوَى آخِرُ صُنْدُوقٍ فَتَحْتُهُ عَلَى ثَلَاثِ أَكْيَاسٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَجَدْتُهَا بِجِوَارِ زَوْجَيْنِ مِنَ الْأَحْذِيَةِ! خَزَنْتُ الْكَثِيرَ مِنْ هَذِهِ الثَّرْوَاتِ الْجَدِيدَةِ فِي كَهْفِي، كَيْ أَطْمَئِنَّ أَنَّهَا فِي مَأْمَنٍ.

لَمْ تَسْتَمِرَّ إِثَارَتِي بِهَذِهِ الِاكْتِشَافَاتِ لِأَكْثَرَ مِنْ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، إِذْ أَكَلْتُ كُلَّ الْحَلْوَى وَشَرِبْتُ كُلَّ الْمَشْرُوبَاتِ الْمُسْكِرَةِ، وَعَادَتْ حَيَاتِي كَمَا كَانَتْ، وَعُدْتُ لِأَتَفَقَّدَ الْمَكَانَ مِنْ أَعْلَى كُلَّ صَبَاحٍ. لَكِنَّ شَيْئًا اخْتَلَفَ الْآنَ، إِذْ لَدَيَّ كَلْبِي الْجَدِيدُ لِيُرَافِقَنِي، وَأَسْمَيْتُهُ سكرافي، وَكَانَ رَفِيقًا صَغِيرًا وَبَارِعًا.

وَبَعْدَ تَحَطُّمِ السَّفِينَةِ، سُرْعَانَ مَا احْتَفَلْتُ بِالْعَامِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ لِنُزُولِي عَلَى الْجَزِيرَةِ. وَمَرَّتْ عَلَيَّ السَّاعَاتُ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَأَنَا جَالِسٌ أُفَكِّرُ فِي كُلِّ مَا حَدَثَ. كَانَتْ سَنَوَاتٌ سَعِيدَةٌ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ وَالنَّجَاحَاتِ الْكَثِيرَةِ. لَكِنِّي الْآنَ أَقْضِي الْكَثِيرَ مِنَ الْوَقْتِ قَلِقًا

تَحَطُّمُ سَفِينَةٍ أُخْرَى

مِنْ أَنْ يَكْتَشِفَ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ وُجُودِي، مِمَّا صَعَّبَ عَلَيَّ الِاسْتِمْتَاعَ بِحَيَاتِي. مَرَّ احْتِفَالِي السَّنَوِيُّ وَأَقْنَعْتُ نَفْسِي أَنَّهُ قَدْ آنَ وَقْتُ الْفِرَارِ. لَكِنْ كَيْفَ لِي أَنْ أَتْرُكَ الْجَزِيرَةَ؟

قَضَيْتُ الْمَوْسِمَ الْمُمْطِرَ بِأَكْمَلِهِ هَذَا الْعَامَ وَأَنَا أُفَكِّرُ وَأُخَطِّطُ لِلْهُرُوبِ. وَكَانَ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ هُمْ مَنْ سَيُرْشِدُونَنِي، فَلَوِ اسْتَطَعْتُ إِقَامَةَ سَلَامٍ مَعَهُمْ، سَيُمْكِنُهُمْ إِطْلَاعِي عَلَى سَبِيلِ الْخُرُوجِ مِنَ الْجَزِيرَةِ.

هَلْ سَيَنْجَحُ الْأَمْرُ؟ هَلْ أَسْتَطِيعُ إِقَامَةَ صَدَاقَاتٍ مَعَهُمْ؟

الفصل الخامس والعشرون

روبنسون يُقَابِلُ «جمعة»

مَرَّتْ شُهُورٌ كَثِيرَةٌ قَبْلَ أَنْ يُجِيبَ الْقَدَرُ عَنْ أَسْئِلَتِي؛ فَذَاتَ صَبَاحٍ، لَمْ يَطُلْ مُكْثِي فِي الْخَارِجِ قَبْلَ أَنْ أَكْتَشِفَ الزَّوَارِقَ. لَقَدْ عَادَ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ! وَكَانُوا يُخَيِّمُونَ فِي ذَاتِ الْمَكَانِ كَمَا فَعَلُوا مُنْذُ بِضْعِ سِنِينَ. اخْتَبَأْتُ تَارَةً أُخْرَى مِنْهُمْ وَشَاهَدْتُهُمْ مِنْ عَلَى بُعْدٍ.

وَكَانَ مَعَهُمْ سَجِينَانِ مِسْكِينَانِ مُقَيَّدَانِ بِحِبَالٍ مَصْنُوعَةٍ مِنْ نَبَاتِ الْكَرْمَةِ، وَبَدَا عَلَيْهِمَا الرُّعْبُ الشَّدِيدُ. أَدْرَكْتُ حِينَهَا أَنَّهُ لَا أَمَلَ فِي إِقَامَةِ صَدَاقَاتٍ مَعَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الْمُخِيفِينَ. وَكَانَ هُنَاكَ عَلَى الْأَقَلِّ ثَلَاثُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ! وَكَانُوا يُصْدِرُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَصْوَاتِ الْغَرِيبَةِ. وَقَامَ رَجُلٌ ضَخْمُ الْجُثَّةِ بِطَرْحِ أَحَدِ السَّجِينَيْنِ أَرْضًا بِيَدَيْهِ. وَبَعْدَمَا رَآهُ رَفِيقُهُ وَهُوَ يَتَلَقَّى الضَّرْبَ، انْتَهَزَ فُرْصَةَ عُمْرِهِ وَأَسْرَعَ مُبْتَعِدًا. كَانَ يَرْكُضُ أَسْرَعَ مِنْ أَيِّ رَجُلٍ رَأَيْتُهُ يَرْكُضُ مِنْ قَبْلُ فِي حَيَاتِي! وَقَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ مَا يَحْدُثُ، حَوَّلَ الرَّجُلُ اتِّجَاهَهُ رَاكِضًا نَحْوِي.

كَادَ قَلْبِي يَتَوَقَّفُ، وَدَارَ فِي عَقْلِي: «هَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ، سَوْفَ يَجِدُونَنِي الْآنَ، وَسَيُؤْذُونَنِي.»

طَارَدَ رَجُلَانِ آخَرَانِ السَّجِينَ، وَاقْتَرَبُوا كُلُّهُمْ مِنِّي أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ. وَفِي غَمْضَةِ عَيْنٍ، حَسَمْتُ أَمْرِي بِمُسَاعَدَةِ الرَّجُلِ الْمِسْكِينِ. وَتَرَبَّصْتُ فِي الْأَجَمَةِ وَانْتَظَرْتُ إِلَى أَنْ جَاءَتِ اللَّحْظَةُ الْمُنَاسِبَةُ. جَرَى السَّجِينُ بِجِوَارِي، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ بِخِفَّةٍ وَأَوْقَعْتُ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ يُطَارِدَانِهِ، بَيْنَمَا حَاوَلَ الرَّجُلُ الثَّانِي الْإِمْسَاكَ بِي، لَكِنَّنِي اسْتَطَعْتُ أَنْ أُفْقِدَهُ الْوَعْيَ. وَاسْتَدَارَ السَّجِينُ وَرَآنِي هُنَاكَ.

قُلْتُ لَهُ، مَعَ عِلْمِي بِأَنَّهُ رُبَّمَا لَا يَفْهَمُنِي: «لَا تَقْلَقْ! سَوْفَ أُسَاعِدُكَ!»

تَرَدَّدَ الرَّجُلُ لِدَقِيقَةٍ، ثُمَّ هُرِعَ عَائِدًا إِلَيَّ. فَقُلْتُ لَهُ: «سَاعِدْنِي كَيْ أُقَيِّدَهُمَا، كَيْ لَا يَقْدِرَا عَلَى إِيذَائِكَ بَعْدَ الْآنَ.» فِي الْبِدَايَةِ لَمْ يَفْهَمْ، لَكِنْ بَعْدَمَا فَكَكْتُ قُيُودَ مِعْصَمَيْهِ مِنَ الْحِبَالِ وَأَشَرْتُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، قَيَّدْنَاهُمَا مُسْتَخْدِمَيْنِ نَفْسَ نَوْعِ الْحِبَالِ، وَبِهَذَا لَنْ يَتَمَكَّنَا مِنَ الْحَرَكَةِ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ جِدًّا!

قُلْتُ لَهُ: «هَيَّا! عَلَيْنَا الْخُروجَ مِنْ هُنَا.»

أَحْضَرْتُ الرَّجُلَ إِلَى كَهْفِي. وَبَعْدَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَرْتَاحَ أَخِيرًا، أَعْطَيْتُهُ بَعْضَ الطَّعَامِ وَالْمَاءِ؛ فَكَانَ فِي غَايَةِ الْعَطَشِ وَالْجُوعِ.

وَسَأَلْتُهُ: «مَا اسْمُكَ؟»

فَأَجَابَنِي بِلُغَتِهِ.

قُلْتُ لَهُ: «سَوْفَ أَدْعُوكَ «جمعة»، لِأَنَّنِي أَنْقَذْتُكَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، يَوْمِ الْجُمُعَةِ!»

ابْتَسَمَ الرَّجُلُ لِي وَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ. وَأَشَرْتُ إِلَى صَدْرِي قَائِلًا: «اسْمِي روبنسون، روبنسون كروزو.»

وَقَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ مَنْعِ نَفْسِهِ، أَطْلَقَ جمعة تَثَاؤُبًا كَبِيرًا وَهَائِلًا، فَضَحِكْتُ عَالِيًا وَقُلْتُ لَهُ: «لَا بُدَّ أَنَّكَ مُتْعَبٌ جِدًّا.» وَأَرَيْتُهُ حَصِيرَةَ نَوْمٍ مِنَ الْقَشِّ كُنْتُ أَتْرُكُهَا فِي الْكَهْفِ وَقُلْتُ لَهُ: «وَالْآنَ، لِمَ لَا تَغْفُو قَلِيلًا؟»

ابْتَسَمَ لِي جمعة، مُدْرِكًا تَمَامًا مَا قَصَدْتُهُ، فَسَارَ إِلَى الْحَصِيرَةِ وَغَرِقَ فِي النَّوْمِ مُبَاشَرَةً. وَجَلَسْتُ هُنَاكَ أُشَاهِدُهُ وَحَسْبُ لِبَعْضِ الْوَقْتِ، فَبِالرُّغْمِ مِنْ مَعْرِفَتِي مِنْ عَدَمِ فَهْمِهِ لِي وَعَدَمِ فَهْمِي لَهُ، إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الرَّائِعِ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ شَخْصٌ لِتَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ. وَكَانَ جمعة رَجُلًا طَوِيلَ الْقَامَةِ لِلْغَايَةِ، وَكَانَ لَهُ شَعْرٌ طَوِيلٌ وَدَاكِنٌ يَنْسَابُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَكَانَ يَرْتَدِي مَلَابِسَ مِنَ الْجِلْدِ هُوَ الْآخَرُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرْتَدِي الْكَثِيرَ مِثْلِي.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، رَجَعْتُ إِلَى الْكَهْفِ الْمُخَصَّصِ لِلطَّهْيِ فَوَجَدْتُ جمعة مَا زَالَ هُنَاكَ. وَفِي الْحَقِيقَةِ، وَعَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ التَّالِيَةِ، فُوجِئْتُ لِمَعْرِفَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ فِي الْعَوْدَةِ لِوَطَنِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. عَمِلْنَا بِجِدٍّ لِأَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ جَنْبًا لِجَنْبٍ، وَتَوَافَقْنَا عَلَى نَحْوٍ جَيِّدٍ، حَتَّى وَلَوْ لَمْ نَكُنْ نَتَحَدَّثُ نَفْسَ اللُّغَةِ.

الفصل السادس والعشرون

الْحَيَاةُ مَعَ صَدِيقٍ

قَضَيْتُ أَنَا وجمعة الثَّلَاثَ سَنَوَاتٍ التَّالِيَةَ نَحْيَا وَنَعْمَلُ مَعًا، وَاتَّبَعْنَا رُوتِينًا مُرِيحًا جِدًّا؛ فَفِي أَوْقَاتِ الصَّبَاحِ نَسْتَطْلِعُ الْجَزِيرَةَ لِلتَّأَكُّدِ أَنَّ أَهْلَهَا لَمْ يَعُودُوا، وَفِي أَوْقَاتِ الظَّهِيرَةِ، نَعْمَلُ فِي الْمَزْرَعَةِ أَوْ نَعْتَنِي بِالْمَحَاصِيلِ أَوْ نَحْلِبُ الْمَاعِزَ أَو نَقْطِفُ الْفَاكِهَةَ. أَمَّا فِي أَوْقَاتِ الْمَسَاءِ، فَنُعِدُّ عَشَاءَنَا وَأُعَلِّمُ جمعة اللُّغَةَ الَّتِي أَتَحَدَّثُهَا. وَوَثِقْتُ فِيهِ ثِقَةً عَمْيَاءَ.

فَهَا هُوَ الْقَدَرُ قَدِ اسْتَجَابَ لِابْتِهَالَاتِي، وَلَمْ أَعُدْ وَحِيدًا. فَوُجُودُ جمعة مَعِي فَحَسْبُ كَانَ كَفِيلًا بِالتَّخْفِيفِ مِنْ خَوْفِي مِنْ أَنْ يَجِدَنِي أَحَدٌ. وَبِالتَّأْكِيدِ وُجُودُنَا نَحْنُ الِاثْنَيْنِ مَعًا كَانَ يُعَزِّزُ مِنْ فُرْصَتِنَا لِحِمَايَةِ أَنْفُسِنَا مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ، مِمَّا جَعَلَنِي أَيْضًا أُفَكِّرُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ فِي الْهُرُوبِ. سَأَلْتُ جمعة أَسْئِلَةً كَثِيرَةً خِلَالَ هَذَا الْوَقْتِ: أَيْنَ نَحْنُ؟ وَمَنْ هُمْ قَوْمُهُ؟ وَمَا الْجُزُرُ الْقَرِيبَةُ مِنَّا؟ وَهَلْ يَشْتَاقُ إِلَى عَائِلَتِهِ؟ وَهَلْ تَبْحَثُ عَائِلَتُهُ عَنْهُ؟

وَفِي الْأَغْلَبِ، كَانَتْ إِجَابَتُهُ عَلَيَّ فِي ابْتِسَامَةٍ وَإِيمَاءَةٍ، حَتَّى تَعَلَّمَ لُغَتِي وَاسْتَطَاعَ إِجَابَتِي.

فَسَأَلْتُهُ: «كَيْفَ لَا تُرِيدُ الذَّهَابَ لِوَطَنِكَ، لِجَزِيرَتِكَ؟»

– «مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، تَرَكْتُ مَنْزِلِي، فَرَغِبْتُ أَنْ أَرَى الْعَالَمَ. لَكِنَّ أَبِي غَضِبَ مِنِّي بِشِدَّةٍ، وَلَمْ يُرِدْ لِيَ الذَّهَابَ، وَكُنْتُ فِي طَرِيقِي لِأَحْظَى بِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ عَظِيمَةٍ حِينَ أَمْسَكَ بِي أَهْلُ الْجَزِيرَةِ، ثُمَّ أَنْقَذْتَ أَنْتَ حَيَاتِي.»

– «هَلْ تَفْتَقِدُ وَالِدَكَ؟»

فَكَّرَ جمعة لِدَقِيقَةٍ ثُمَّ قَالَ: «نَعَمْ، أَفْتَقِدُهُ بِالْفِعْلِ، وَأَفْتَقِدُ جَزِيرَتِي. لَكِنَّنِي أُحِبُّ الْوَضْعَ هَا هُنَا، وَأُحِبُّ الْعَيْشَ هَا هُنَا، وَأُحِبُّ الْعَمَلَ فِي الْمَزْرَعَةِ. فَالْأَمْرُ مُخْتَلِفٌ جِدًّا.»

ابْتَسَمْتُ لَهُ قَائِلًا: «إِذَنْ فَأَنْتَ تُرِيدُ الْبَقَاءَ؟»

وَانْفَغَرَ فَمُهُ عَنِ ابْتِسَامَةٍ عَرِيضَةٍ وَقَالَ: «بِالطَّبْعِ أَوَدُّ ذَلِكَ! فَهَذِهِ فُرْصَةُ الْعُمْرِ، أَنْ أَحْظَى بِهَذِهِ الْمُغَامَرَةِ!»

قُلْتُ لَهُ: «التَّشَابُهُ بَيْنَنَا كَبِيرٌ، فَهَكَذَا انْتَهَى بِيَ الْمَطَافُ عَلَى الْجَزِيرَةِ أَنَا الْآخَرِ، فَقَدْ تَرَكْتُ وَطَنِي لِأَحْظَى بِمُغَامَرَةٍ كُبْرَى؛ وَاسْتَقْرَرْتُ هُنَا مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ عَامًا.»

قَضَيْتُ سَاعَاتٍ أَحْكِي فِيهَا لجمعة عَنْ حَيَاتِي قَبْلَ الْجَزِيرَةِ، وَعَنْ نَشْأَتِي فِي إِنْجِلْتِرَا، وَعَنْ مَزْرَعَتِي فِي الْبَرَازِيلِ. وَأَخْبَرَنِي هُوَ عَنْ حَيَاتِهِ، وَعَنْ عَائِلَتِهِ، وَعَنْ كَيْفَ كَانَتِ الْحَيَاةُ عَلَى الْجَزِيرَةِ الَّتِي قَدِمَ مِنْهَا. وَظَهَرَتْ بَيْنَنَا أَشْيَاءُ مُشْتَرَكَةٌ كَثِيرَةٌ، بِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّ مَسْقَطَ رَأْسَيْنَا فِي أَمَاكِنَ شَدِيدَةِ الِاخْتِلَافِ. وَأَصْبَحْنَا أَفْضَلَ صَدِيقَيْنِ.

– «لَقَدْ كَانَ مُقَدَّرًا لَنَا أَنْ نَغْدُوَ صَدِيقَيْنِ حَمِيمَيْنِ يَا روبنسون! وَأَنَا لَسْتُ قَلِقًا، فَأَنَا وَاثِقٌ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَنْصَلِحُ.»

جَلَسْنَا صَامِتَيْنِ فِي خَيْمَتِنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِفَتْرَةٍ، كُلٌّ مِنَّا يُفَكِّرُ كَيْفَ انْتَهَى بِهِ الْمَطَافُ هُنَا، وَغَرِقَ كُلٌّ مِنَّا فِي أَفْكَارِهِ عَنْ حَيَاةِ الْمُغَامِرِ.

وَسَأَلْتُ جمعة: «هَلْ حَدَثَ أَنِ انْجَرَفَ أَيٌّ مِنْ قَوْمِكَ فِي الْبَحْرِ بِقَوَارِبِهِمْ؟»

فَأَجَابَ: «لَا، لَا أَظُنُّ ذَلِكَ. فَنَحْنُ نُجَدِّفُ مَعَ الْمَدِّ، وَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ، وَالنَّهْرُ يَجْرِي فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ.»

فِي الْبِدَايَةِ، لَمْ أَفْهَمْ مَقْصِدَهُ. أَيُّ نَهْرٍ؟ نَعَمْ بِالطَّبْعِ! أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنَّهُ يَقْصِدُ نَهْرَ أورينوكو الْعَظِيمَ، فَلَا بُدَّ أَنَّ جَزِيرَتِي قَرِيبَةٌ مِنْ ترينيداد.

أَشَرْتُ إِلَى لِحْيَتِي وَسَأَلْتُهُ: «هَلْ رَأَيْتَ رِجَالًا كَثِيرِينَ مِثْلِي مِنْ قَبْلُ؟»

فَكَّرَ جمعة فِي الْأَمْرِ لِدَقِيقَةٍ، ثُمَّ أَجَابَ: «فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ كُلَّ الْبُعْدِ، يَبْعُدُ كَثِيرًا عَنْ قَوْمِي، وَيَبْعُدُ كَثِيرًا عَنْ هُنَا، يُوجَدُ رِجَالٌ بِلِحًى؛ رِجَالٌ بِلِحًى طَوِيلَةٍ وَوُجُوهٍ شَاحِبَةٍ، مِثْلُكَ بِالضَّبْطِ، أَجَلْ.»

أَشْعَلَتْ كَلِمَاتُ جمعة حَمَاسَتِي وَقُلْتُ لَهُ: «هَلْ تَظُنُّ أَنَّ بِمَقْدُورِنَا نَحْنُ أَنْ نُبْحِرَ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ بِقَارِبِي الصَّغِيرِ؟»

هَزَّ رَأْسَهُ نفيًا، وَانْخَفَضَتْ مَعْنَوِيَّاتِي، وَقَالَ: «لَيْسَ فِي الْقَارِبِ الصَّغِيرِ، لَا، لَكِنْ يُمْكِنُنَا الْإِبْحَارُ فِي قَارِبٍ أَكْبَرَ؛ قَارِبٍ كَبِيرٍ، فِي حَجْمِ زَوْرَقَيْنِ.»

انْفَغَرَ فَمِي عن ابْتِسَامَةٍ عَرِيضَةٍ، وَخَبَطْتُ جمعة عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ فَرْطِ سَعَادَتِي، وَنظَرَ إِلَيَّ كَمَا لَوْ كُنْتُ مَجْنُونًا، لَكِنَّنِي لَمْ أُبَالِ. فَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ عَامًا، بَاتَتْ لَدَيَّ فِكْرَةٌ عَنْ مَكَانِ إِقَامَتِي، وَلَدَيَّ فِكْرَةٌ عَنْ مَكَانِ جَزِيرَتِي مِنَ الْعَالَمِ. لَمْ أَكُنْ وَحِيدًا، وَكَانَ لَدَيَّ أَمَلٌ فِي الْعَوْدَةِ لِوَطَنِي.

وَفِي سَاعَةٍ هَادِئَةٍ بَعْدَ الظَّهِيرَةِ، خِلَالَ مَوْسِمِ الْجَفَافِ، سِرْتُ أَنَا وجمعة لِمَسَافَةٍ طَوِيلَةٍ نُزُولًا إِلَى الشَّاطِئِ حَيْثُ رَأَيْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ أَثَرَ قَدَمٍ. أَرَدْتُ أَنْ أُرِيَهُ أَجْزَاءَ السَّفِينَةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي فَكَكْتُهَا وَخَبَّأْتُهَا طَوَالَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ الْمَاضِيَةِ.

تَفَحَّصَ جمعة حُطَامَ السَّفِينَةِ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، وَأَخَذَ يُقَلِّبُ فِي الْأَجْزَاءِ لِيَرَى أَسْفَلَهَا، وَلَفَّ حَوْلَهَا لِأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ. ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى ذَقْنِهِ وَقَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ سَفِينَةً مِثْلَ هَذِهِ مِنْ قَبْلُ يَا روبنسون.»

انْدَهَشْتُ جِدًّا لِسَمَاعِ هَذَا الْكَلَامِ، فَسَأَلْتُهُ: «مَاذَا تَعْنِي؟»

نَظَرَ إِلَيَّ جمعة مُجِيبًا: «مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ. أَجَلْ، كَانَ ذَلِكَ مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، هَبَطَ سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا عَلَى جَزِيرَتِي.» وَاسْتَمَرَّ جمعة فِي حَدِيثِهِ لِيُخْبِرَنِي أَنَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ لَا يَزَالُونَ هُنَاكَ، يَعِيشُونَ عَلَى جَزِيرَتِهِ، بِالْقُرْبِ مِنْ قَوْمِهِ.

قُلْتُ لَهُ: «لَا بُدَّ أَنَّهُمُ الرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ الَّتِي شَهِدْتُهَا بَعْدَ تَحَطُّمِهَا!» ثم أَخْبَرْته كُلَّ شَيْءٍ عَنْ سَمَاعِي لِطَلَقَاتِ الْمِدْفَعِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، ثُمَّ طَلَقَاتِ النَّارِ، وَاسْتَطْرَدْتُ: «لَكِنْ عِنْدَ انْقِشَاعِ الضَّبَابِ وَنُزُولِي إِلَى الشَّاطِئِ، كُلُّ مَا وَجَدْتُهُ هُوَ سَفِينَةٌ أُخْرَى مُحَطَّمَةٌ! كَمْ مِنَ الرَّائِعِ أَنَّ كُلَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ لَمْ يَمُوتُوا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَمَا ظَنَنْتُ!»

وَبَدَأْنَا فِي السَّيْرِ عَائِدَيْنِ إِلَى الْمُخَيَّمِ، كِلَانَا مُسْتَغْرِقٌ فِي أَفْكَارِهِ. وَكَانَتْ مِشْيَةً هَادِئَةً، لَمْ أَقُلْ أَيَّ شَيْءٍ لِصَدِيقِي إِلَى مَا بَعْدَ الْعَشَاءِ.

وَقُلْتُ لجمعة قَاطِعًا أَمْرِي: «عَلَيْنَا الْعَوْدَةُ إِلَى جَزِيرَتِكَ يَا جمعة!»

الفصل السابع والعشرون

هَلْ يُمْكِنُنا مُغادَرَةُ الْجَزِيرَةِ؟

كُنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَى قَارِبٍ لِنُغَادِرَ الْجَزِيرَةَ؛ فَالْقَارِبَانِ اللَّذَانِ صَنَعْتُهُمَا لَنْ يَكُونَا ذَوَيْ نَفْعٍ لِمِثْلِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ (وَبِالنِّسْبَةِ لِقَارِبِي الْأَوَّلِ فَلَا يَزَالُ مَتْرُوكًا عَلَى الْيَابِسَةِ فِي مُنْتَصَفِ الْغَابَةِ).

سَأَلْتُ جمعة ذَاتَ صَبَاحٍ بَيْنَمَا نَتَنَاوَلُ إِفْطَارَنَا: «هَلْ تَظُنُّ أَنَّ بِإِمْكَانِكَ مُسَاعَدَتِي فِي صُنْعِ سَفِينَةٍ مِثْلِ الَّتِي رَأَيْتَهَا مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ؟»

وَأَجَابَ: «أَجَلْ، فَلَا أَرَى مَانِعًا. وَمَعَ أَنِّي غَيْرُ مُتَأَكِّدٍ كَيْفَ، لَكِنَّنِي مُتَأَكِّدٌ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى تَعْلِيمِي؛ أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا روبنسون؟»

فَقُلْتُ: «بِالطَّبْعِ! فَبِتَعَاوُنِنَا مَعًا سَوْفَ نَسْتَطِيعُ بِنَاءَ قَارِبٍ جَيِّدٍ يَحْمِلُنَا لِنَعُودَ بِهِ إِلَى جَزِيرَتِكَ.

قَطَعْنَا الْأَشْجَارَ، وَنَحَتْنَا أَلْوَاحَ الْخَشَبِ، وَفَرَّغْنَا الْقَاعَ. عَمِلْنَا وَتَعِبْنَا. وَمَرَّتِ الشُّهُورُ وَبَدَأَ مَرْكَبُنَا يَأْخُذُ شَكْلًا بِبُطْءٍ. وَعَمِلْنَا طَوَالَ مَوْسِمِ الْجَفَافِ كُلِّهِ بِلَا تَوَقُّفٍ وَلَوْ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ. وَبِمُجَرَّدِ انْتِهَاءِ الْعَمَلِ فِي الْقَارِبِ، بَذَلْنَا كُلَّ جُهُودِنَا لِزَحْزَحَتِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى الْمَاءِ. وَحَقًّا لَمْ نَرَ قَطُّ رَجُلَيْنِ أَسْعَدَ مِنَّا يَوْمَ أَنْ طَفَا الْقَارِبُ عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ!

كَانَ جمعة وَاثِقًا أَنَّ بِاسْتِطَاعَتِنَا اسْتِخْدَامَ مَجَادِيفِنَا حَتَّى نَصِلَ إِلَى الْبَرِّ الرَّئِيسِيِّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَكَانَ لَدَيَّ فِكْرَةٌ أَفْضَلُ؛ فَبَيْنَمَا قَطَعَ جمعة شَجَرَةَ أَرْزٍ كَبِيرَةً كَيْ نَسْتَخْدِمَهَا كَصَارٍ، جَلَسْتُ وَخِطْتُ جَمِيعَ أَجْزَاءِ الْخَيْمَةِ الَّتِي احْتَفَظْتُ بِهَا عَلَى مَدَى هَذِهِ السَّنَوَاتِ. وَوَضَعْنَا الصَّارِيَ وَأَقَمْنَا الشِّرَاعَ، وَأَصْبَحَ الْمَرْكَبُ الْآنَ جَاهِزًا لِجَوْلَةٍ لِلتَّجْرِبَةِ! أَبْحَرْتُ أَنَا

وجمعة حَوْلَ الْمَرْفَأِ إِذْ عَلَّمْتُهُ كَيْفَ يُبْحِرُ. وَكَحَالِهِ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ أَرَيْتُهُ كَيْفَ يَقُومُ بِهِ، وَجَدْتُهُ سَرِيعَ التَّعَلُّمِ، حَتَّى عَرَفَ جمعة سَرِيعًا كَيْفَ يَتَحَكَّمُ فِي الْمَرْكَبِ تَقْرِيبًا بِنَفْسِ جَوْدَةِ تَحَكُّمِي فِيهِ.

بَعْدَ ذَلِكَ اضْطُرِرْنَا إِلَى أَنْ نَظَلَّ فِي مَنْزِلِنَا فِي الْمَوْسِمِ الْمُمْطِرِ، وَأَرَدْنَا حِمَايَةَ الْمَرْكَبِ مِنْ ظُرُوفِ الطَّقْسِ. فَحَفَرْنَا حَوْضًا صَغِيرًا لِلْمَرْكَبِ مِنَ الْيَابِسَةِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْجَدْوَلِ، ثُمَّ حَرَصْنَا عَلَى بَقَائِهِ جَافًّا عَبْرَ بِنَاءِ سَدٍّ حَوْلَهُ وَتَغْطِيَةِ قِمَّتِهِ بِأَغْصَانٍ كَبِيرَةٍ كَامِلَةٍ لِتَكُونَ بِمَنْزِلَةِ سَقْفٍ. وَالْآنَ كُلُّ مَا تَبَقَّى لَنَا فَعْلُهُ هُوَ انْتِظَارُ تَحَسُّنِ الطَّقْسِ.

مَرَّ إِجْمَالِيُّ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ عَامًا مُنْذُ أَنْ تَحَطَّمَ قَارِبِي وَأُلْقِيتُ عَلَى الْجَزِيرَةِ، فَكَمْ هُوَ صَعْبٌ أَنْ أُصَدِّقَ مُرُورَ كُلِّ هَذَا الْوَقْتِ. جَلَسْتُ لِفَتَرَاتٍ طِوَالٍ مُتَسَائِلًا كَمْ تَغَيَّرَتِ الْحَيَاةُ يَا تُرَى فِي وَطَنِي، هَلْ لَا تَزَالُ مَزْرَعَتِي مَوْجُودَةً؟ هَلْ لَا يَزَالُ أَهْلِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ؟ هَلْ عَادَ أَخِي لِلْوَطَنِ؟ تَسَابَقَتْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ بَيْنَ جَنَبَاتِ عَقْلِي مِثْلَ قَطَرَاتِ الْمَطَرِ، لَا يُوقِفُهَا شَيْءٌ سِوَى سُطُوعِ الشَّمْسِ.

الفصل الثامن والعشرون

التَّمَرُّدُ وَالْحُرِّيَّةُ

تَوَقَّفَتِ الْأَمْطَارُ، مِثْلَمَا كَانَ الْحَالُ عَلَى مَدَى مَوَاسِمَ عَدِيدَةٍ. وَبَدَأْتُ أَنَا وجمعة فِي الْإِعْدَادِ بِجِدِّيَّةٍ لِرِحْلَتِنَا. اعْتَنَيْنَا بِالْمَحْصُولِ عِنَايَةً جَيِّدَةً، وَبَدَأْنَا فِي تَرْتِيبِ جَمِيعِ الْمُؤَنِ، وَلَمْ يَتَبَقَّ سِوَى التَّأَكُّدِ مِنْ تَوَافُرِ الْغِذَاءِ الْكَافِي بِحَوْزَتِنَا.

وَسَأَلْتُ جمعة: «هَلْ تُمَانِعُ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْمَنْزِلِ الصَّيْفِيِّ وَتَجْمِيعِ بَعْضِ الزَّبِيبِ لَنَا؟»

فَأَجَابَ: «عَلَى الْإِطْلَاقِ، سَأَذْهَبُ مِنْ فَوْرِي.»

وَلَمْ تَكَدْ تَمْضِي سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ حَتَّى سَمِعْتُهُ يَجْرِي عَلَى الطَّرِيقِ صَاعِدًا وَهُوَ يَصْرُخُ: «روبنسون! روبنسون! أَقْبِلْ بِسُرْعَةٍ. يُوجَدُ مَرْكَبٌ هُنَا! مَرْكَبٌ!»

الْتَقَطْتُ بُنْدُقِيَّتَيْنِ وَأَنَا فِي طَرِيقِي خَارِجًا مِنَ الْبَابِ، وَأَلْقَيْتُ بِوَاحِدَةٍ لجمعة، وَأَسْرَعْنَا إِلَى التَّلِّ الْعَالِي، وَاخْتَبَأْنَا بِهُدُوءٍ وَرَاقَبْنَا سَفِينَةً إِنْجِلِيزِيَّةً وَهِيَ تُبْحِرُ نَحْوَ الْجَزِيرَةِ.

وَهَمَسَ لِي جمعة: «مَاذَا تَظُنُّهُمْ فَاعِلِينَ؟»

فَأَجَبْتُ: «لَسْتُ أَدْرِي، لَكِنَّهُ بِالتَّأْكِيدِ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَهَذَا لَيْسَ طَرِيقَ تِجَارَةٍ مُعْتَادٍ؛ وَلَمْ أَرَ سَفِينَةً إِنْجِلِيزِيَّةً لِمَا يُقَارِبُ ثَلَاثِينَ سَنَةً.»

أَلْقَتِ السَّفِينَةُ بِمِرْسَاتِهَا عَلَى الشَّاطِئِ مُبَاشَرَةً، وَجَرَّ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ الْغَاضِبِينَ حَادِّي الطِّبَاعِ ثَلَاثَةَ أَسْرَى مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى الشَّاطِئِ. وَكَانَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَقْدَامُهُمْ مُقَيَّدَةً، ثُمَّ تَرَكَ الْأَشْرَارُ هَؤُلَاءِ الرِّفَاقَ الْمَسَاكِينَ فِي حَرَارَةِ الشَّمْسِ بِلَا غِذَاءٍ وَلَا مَاءٍ فِي حِينِ ذَهَبُوا هُمْ لِيَسْتَكْشِفُوا الْجَزِيرَةَ.

أَشَرْتُ لجمعة بِأَنْ يَتْبَعَنِي، وَتَسَلَّلْنَا بِبُطْءٍ هُبُوطًا عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى الشَّاطِئ. وَحِينَ تَيَقَّنْتُ أَنْ لَا أَحَدَ بِجِوَارِنَا، تَسَلَّلْتُ إِلَى الرِّجَالِ وَسَأَلْتُهُمْ مَنْ هُمْ وَلِمَاذَا أَتَوْا إِلَى الْجَزِيرَةِ.

فِي الْبِدَايَةِ ارْتَبَكُوا أَيَّمَا ارْتِبَاكٍ، وَلَمْ يُجِيبُونِي عَلَى الإِطْلَاقِ. فَلَا بُدَّ أَنَّ مَنْظَرِي بَدَا شَدِيدَ الْغَرَابَةِ لَهُمْ؛ كَإِنْسَانٍ هَمَجِيٍّ وَمَجْنُونٍ يَظْهَرُ مِنَ الْعَدَمِ!

قُلْتُ لَهُمْ: «لَنْ أُوذِيَكُمْ، أَنَا هُنَا لِمُسَاعَدَتِكُمْ.» وَنَادَيْتُ عَلَى جمعة لِيَأْتِيَ، وَبِاسْتِخْدَامِ سِكِّينِهِ قَطَعَ قُيُودَهُمْ. وَبَيْنَمَا كُنَّا نُحَرِّرُهُمْ، شَرَحَ لَنَا أَحَدُ الرِّجَالِ: «أَنَا قُبْطَانُ هَذِهِ السَّفِينَةِ الْعَظِيمَةِ، وقد حَدَثَ عَلَى مَتْنِهَا تَمَرُّدٌ، فَقَرَّرَ طَاقَمُ السَّفِينَةِ الإِبْحَارَ خَارِجَ الْمَسَارِ الْمُحَدَّدِ. وَهَكَذَا رَسَوْنَا هُنَا.»

قُلْتُ لَهُمْ: «تَعَالَوْا بِسُرْعَةٍ، عَلَيْنَا أَنْ نُبْعِدَ ثَلَاثَتَكُمْ عَنْ هُنَا قَبْلَ أَنْ يَعُودُوا.»

– «بِالْمُنَاسَبَةِ، أَنَا الْقُبْطَانُ والش، أَمَّا هَذَانِ الرَّجُلَانِ فَهُمَا نَائِبَايَ، مُورْجَانُ وَبَاسُ.»

– «أَنَا روبنسون كروزو، وَهَذَا جمعة.»

الفصل التاسع والعشرون

الْأَخْذُ بِالدَّفَّةِ

دُونَ مُقَدِّمَاتٍ، جَرَيْنَا بِسُرْعَةٍ بِكُلِّ طَاقَتِنَا بَعِيدًا عَنِ الشَّاطِئِ، وجمعة فِي الْمُقَدِّمَةِ. وَمَا إِنْ جَلَسْنَا بِأَمَانٍ عَلَى التَّلِّ الْعَالِي، حَتَّى أَخْبَرَنَا الْقُبْطَانُ بِقِصَّتِهِ بِتَفَاصِيلَ أَكْثَرَ. وَفِي النِّهَايَةِ، تَبَيَّنَ أَنَّ رَجُلَيْنِ فَقَطْ هُمَا مَنْ تَسَبَّبَا فِي حُدُوثِ جَمِيعِ الْمَشَاكِلِ لِلْقُبْطَانِ الْمِسْكِينِ. فَهُمَا مَنْ أَقْنَعَا الْآخَرِينَ بِالتَّمَرُّدِ وَالْآنَ يُضَلِّلَانِهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ. وَاسْتَطْرَدَ الْقُبطَانُ بِقَوْلِهِ إِنَّ الْحَظَّ الْحَسَنَ هُوَ مَا أَبْقَاهُمْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّهُمَا بَحَّارَانِ غَيْرُ مَاهِرَيْنِ؛ فَهُمَا فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَدْرِيَانِ شَيْئًا عَمَّا يَفْعَلَانِهِ.

– «فَكُلُّ مَا يَشْغَلُ تَفْكِيرَهُمَا هُوَ الذَّهَبُ؛ وَلَيْسَ سَلَامَةَ الْمَرْكَبِ، أَوْ حَيَاةَ بَاقِي الرِّجَالِ. وَكُلُّ مَا يُرِيدَانِهِ هُوَ الْمَالُ.»

سَأَلْتُ الْقُبْطَانَ وَالْش عَمَّا إِذَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ يَعُودَ بَاقِي رِجَالِهِ إِلَى إِخْلَاصِهِمْ لَهُ، إِذَا تَمَّ الْإِمْسَاكُ بِاللِّصَّيْنِ.

– «أَجَلْ، أَظُنُّهُمْ سَيَفْعَلُونَ، فَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ فَرِحُونَ بِوُجُودِهِمْ فِي الْبَحْرِ بِلَا اتِّجَاهٍ وَاضِحٍ وَلَا خُطَطٍ لِلْعَوْدَةِ لِأَوْطَانِهِمْ.»

فَأَخْبَرْتُ الْقُبْطَانَ وَالْش أَنَّنِي يُسْعِدُنِي أَنَا وجمعة أَنْ نُنَاصِرَهُ، لَكِنِّي كُنْتُ أَوَدُّ مَعْرِفَةَ شَيْئَيْنِ فِي الْبِدَايَةِ.

– «هَلْ سَتَتْبَعُ تَعْلِيمَاتِي وَتَدَعُنِي أَقُودُكَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ؟ وَفِي حَالِ انْتَصَرْنَا، هَلْ تَصْحَبُنِي أَنَا وجمعة لِنَعُودَ إِلَى إِنْجِلْتِرَا بِرِفْقَتِكَ؟»

وَافَقَ الْقُبْطَانُ وَالْش فِي الْحَالِ، وَجَلَسْنَا نَحْنُ الْخَمْسَةُ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ وَابْتَكَرْنَا خُطَّةً مُحْكَمَةً لِلْغَايَةِ. فَغَالِبًا مَا يَقْضِي الْوَغْدَانِ الْوَقْتَ جَالِسَيْنِ فَحَسْبُ لِتَدْبِيرِ خُطَطِهِمْ. وَاتَّفَقَ

الْقُبْطَانُ أَنَّ فِي اسْتِطَاعَتِنَا عَلَى الْأَرْجَحِ أَسْرَهُمَا بِسُهُولَةٍ، ثُمَّ بَعْدَ الِاطْمِئْنَانِ إِلَى تَقْيِيدِهِمَا، نُقْنِعُ بَاقِيَ الرِّجَالِ بِالْعَوْدَةِ لِلنِّظَامِ.

اصْطَحَبْنَا الْبَحَّارَةَ لِكَهْفِي الْخَاصِّ بِالطَّهْيِ، حَيْثُ أَحْتَفِظُ بِبَاقِي بَنَادِقِي. وَأَعْطَيْتُ كُلَّ رَجُلٍ سِلَاحًا وَبَعْضَ الْبَارُودِ، تَحَسُّبًا لِاحْتِيَاجِنَا إِلَيْهِ. وَتَحَرَّكْنَا نَحْنُ الْخَمْسَةُ بِخِفَّةٍ كَالْهَوَاءِ لِنَعُودَ إِلَى الشَّاطِئِ، حَيْثُ يَغْفُو كُلُّ الرِّجَالِ، مُنْتَشِرِينَ بِطُولِ الشَّاطِئِ، وَقَدْ أَسْنَدَ بَعْضُهُمْ رَأْسَهُ عَلَى أَزْنَادِ الْأَشْجَارِ، وَرَقَدَ الْبَعْضُ فِي الشَّمْسِ وَحَسْبُ.

أَحَطْنَا بِالرِّجَالِ، وَعَدَدْتُ إِلَى ثَلَاثَةٍ بِأَصَابِعِي، ثُمَّ أَطْلَقْنَا النَّارَ مِنْ بَنَادِقِنَا فِي الْهَوَاءِ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، فَقَفَزَ الرِّجَالُ، خَائِفِينَ وَمَصْدُومِينَ، وَلَمْ يَدْرُوا مَاذَا يَفْعَلُونَ!

وَصِحْتُ قَائِلًا: «أَلْقُوا أَسْلِحَتَكُمْ! أَلْقُوهَا الْآنَ قَبْلَ أَنْ نُطْلِقَ النَّارَ عَلَيْكُمْ جَمِيعًا!»

وَعَلَا صَوْتُ رَنِينٍ وَصَخَبِ الْعَدِيدِ مِنَ السَّكَاكِينِ، وَالسُّيُوفِ، وَالْأَغْمَادِ عِنْدَ ارْتِطَامِهَا بِالْأَرْضِ.

ثم أضفت: «وَالْبَنَادِقَ أَيْضًا، أَعْرِف أَنَّ مَعَكُمْ بَنَادِقَ!» فَأَلْقَى قَلِيلٌ مِنْهُمْ أَسْلِحَتَهُمْ عَلَى مَضَضٍ.

وَاسْتَدَرْتُ لِلْقُبْطَانِ وَالْش قَائِلًا: «مَنِ الْوَغْدَانِ اللَّذَانِ اسْتَوْلَيَا عَلَى سَفِينَتِكَ يَا قُبْطَانُ وَالْش؟» فَأَشَارَ الْقُبْطَانُ بِإِصْبَعِهِ إِلَى رَجُلَيْنِ مُرْتَعِدَيْنِ فِي وَسْطِ الْمَجْمُوعَةِ.

– «أَنْتُمَا، تَعَالَيَا هُنَا، الْآنَ!» تَرَدَّدَا فِي الْبِدَايَةِ، ثُمَّ حَاوَلَا الْفِرَارَ، لَكِنَّ جمعة كَانَ سَرِيعًا بِمَا يَكْفِي لِإِيقَافِهِمَا. فَأَوْقَعَ الْأَوَّلَ ثُمَّ أَمْسَكَ بِالْآخَرِ قَبْلَ حَتَّى أَنْ يَصِلَ إِلَى الْأَشْجَارِ.

وَقُلْتُ: «بِسُرْعَةٍ! هَيَّا لِنُقَيِّدْهُمَا!» قَيَّدَ مُورْجَانُ وَبَاس أَيْدِيَهُمَا مَعًا بِاسْتِخْدَامِ بَعْضِ الْحِبَالِ الْمَصْنُوعَةِ مِنْ نَبَاتِ الْكَرْمَةِ.

– «جمعة، أَنْتَ تَعْلَمُ أَيْنَ سَتَذْهَبُ بِهَذَيْنِ الْهَمَجِيَّيْنِ!» فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ وَأَشَارَ إِلَى بَاس وَمُورْجَانَ لِيُسَاعِدَاهُ.

وَبِمُجَرَّدِ ابْتِعَادِهِمَا عَنْ مَرْمَى السَّمْعِ، تَحَدَّثَ الْقُبْطَانُ مَعَ رِجَالِهِ، فَقَالَ لَهُمْ إِمَّا أَنْ يَعُودُوا إِلَيْهِ أَوْ يَفْقِدُوا حَيَاتَهُمُ اللَّيْلَةَ؛ وَكَانَ الْخَيَارُ لَهُمْ. فَطَأْطَئُوا جَمِيعًا رُءُوسَهُمْ فِي خِزْيٍ مِنْ خِيَانَةِ مِثْلِ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ. وَأَخْبَرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ الْقُبْطَانَ وَالْش أَنَّهُمْ سَيَتْبَعُونَهُ. وَاعْتَذَرَ الْكَثِيرُونَ عَلَى التَّمَرُّدِ، وَقَالُوا إِنَّهُمْ كَانُوا مُنْزَعِجِينَ بِشِدَّةٍ مِنْ جَرَّاءِ مَا

فَعَلُوهُ، بَلْ إِنَّ أَحَدَهُمْ بَدَأَ يُنْشِدُ أُغْنِيَةَ «لِأَنَّهُ رَفِيقٌ صَالِحٌ وَمَرِحٌ» مِمَّا أَسْعَدَ الْقُبْطَانَ وَالْش أَيَّمَا سَعَادَةٍ.

بِتَقْيِيدِ الْوَغْدَيْنِ بِإِحْكَامٍ فِي كَهْفِي الْخَاصِّ بِالطَّهْيِ، تَسَنَّتْ لِي وَلِلْقُبْطَانِ فُرْصَةُ إِجْرَاءِ حَدِيثٍ طَوِيلٍ وَشَائِقٍ، فَسِرْتُ بِالْقُبْطَانِ وَالْش فِي جَوْلَةٍ عَلَى جَزِيرَتِي، وَأَرَيْتُهُ مَزْرَعَتَنَا النَّاجِحَةَ، وَانْبَهَرَ أَيَّمَا انْبِهَارٍ، فَلَمْ يَسَعْهُ التَّصْدِيقُ أَنَّنِي عَمِلْتُ الْكَثِيرَ بِمُفْرَدِي!

وَبَعْدَ قَضَاءِ زَمَنٍ عَلَى الْجَزِيرَةِ، قَضَيْتُ أَنَا وجمعة بِضْعَ سَاعَاتٍ لِحَزْمِ كُلِّ شَيْءٍ نَحْتَاجُهُ فِي الرِّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ إِلَى إِنْجِلْتِرَا. وَقَالَ الْقُبْطَانُ إِنَّ لَدَيْهِ الْكَثِيرَ مِنَ الْمُؤَنِ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ بِالْفِعْلِ، لَكِنَّهُ أَخَذَ بَعْضَ مِيَاهِ الشُّرْبِ وَالْكَثِيرَ مِنَ الْفَاكِهَةِ مِنْ مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ مِنْ أَجْلِ رِحْلَةِ الْعَوْدَةِ، ثُمَّ أَعْطَانِي الْقُبْطَانُ الطَّيِّبُ قَمِيصًا نَظِيفًا وَبِنْطَالًا جَدِيدًا! وَكَانَا رَائِعَيْنِ؛ فَقَدْ ظَلَلْتُ سَنَوَاتٍ لَا أَرْتَدِي سِوَى مَلَابِسَ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ!

وَسَأَلْتُ جمعة وَنَحْنُ نَحْزِمُ أَمْتِعَتَنَا: «هَلْ أَنْتَ وَاثِقٌ أَنَّكَ لَا تَوَدُّ الْعَوْدَةَ لِوَطَنِكَ، إِلَى عَائِلَتِكَ؟»

فَأَجَابَنِي: «روبنسون، أَنَا قَرَّرْتُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ جِدًّا أَنِّي أُرِيدُ حَيَاةَ الْمُغَامَرَةِ، وَالْآنَ لَدَيَّ الْفُرْصَةُ لِأَرَى دَوْلَةَ إِنْجِلْتِرَا الْعُظْمَى، ولن أفوِّتَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ!»

قُلْتُ لَهُ: «آهٍ يَا جمعة! إِنَّنِي سَعِيدٌ جِدًّا لِسَمَاعِي بِأَنَّكَ سَتَأْتِي مَعِي، فَلَنْ يَكُونَ الْحَالُ بِكَ كَمَا هُوَ بِدُونِكَ.»

أَتَى الْقُبْطَانُ والش لِيُخْبِرَنَا أَنَّ سَفِينَتَهُ مُسْتَعِدَّةٌ لِلرَّحِيلِ، وَلَكِنْ لَمْ يَبْقَ سِوَى شَيْءٍ وَاحِدٍ فَقَطْ كَانَ عَلَيَّ عَمَلُهُ قَبْلَ رَحِيلِنَا؛ وَهُوَ ذَهَابِي لِلرَّجُلَيْنِ الْمُقَيَّدَيْنِ فِي كَهْفِي الْخَاصِّ بِالطَّهْيِ.

قُلْتُ لَهُمَا: «لَدَيْكُمَا خَيَارَانِ: الْعَوْدَةُ إِلَى إِنْجِلْتِرَا مَعَنَا، مُقَيَّدَيْنِ وَمُصَفَّدَيْنِ، عَلَى أَنْ تُحَاكَمَا وَتُطَبَّقَ عَلَيْكُمَا عُقُوبَةُ الشَّنْقِ بِتُهْمَةِ الْخِيَانَةِ، أَوِ الْبَقَاءُ هُنَا عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَبَذْلُ قُصَارَى جُهْدِكُمَا لِلْبَقَاءِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.»

نَظَرَ الرَّجُلَانِ بَعْضُهُمَا إِلَى بَعْضٍ، فَقَدْ كَانَا يَعْلَمَانِ أَنَّ عَوْدَتَهُمَا إِلَى الْبِلَادِ تَعْنِي الْإِعْدَامَ؛ لِذَا لَمْ أَتَفَاجَأْ حِينَ طَأْطَأَ كِلَا الرَّجُلَيْنِ بِرَأْسَيْهِمَا وَتَقَبَّلَا مَصِيرَهُمَا. فَفَكَكْتُ أَيْدِيَهُمَا وَأَقْدَامَهُمَا وَتَرَكْتُ لَهُمَا بَعْضَ مِيَاهِ الشُّرْبِ، وَأَخْبَرْتُهُمَا أَيْنَ يجِدَانِ مُخَيَّمِي، وَكَيْفَ يَحْيَيَا

حَيَاةً طَيِّبَةً عَلَى الْجَزِيرَةِ إِذَا عَمِلَا بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ. بَدَوَا تَعِيسَيْنِ عِنْدَ رَحِيلِي، لَكِنَّهُمَا عَلَى الْأَقَلِّ ظَلَّا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.

قُلْتُ لَهُمَا: «هَذِهِ الْجَزِيرَةُ جَنَّةٌ الْآنَ، وَعَلَيْكُمَا مُعَامَلَتهَا عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ.»

مَعَ كَلِمَاتِ الْوَدَاعِ هَذِهِ تَرَكْتُهُمَا. وَنَظَرْتُ مَرَّةً أَخِيرَةً فِي الْأَرْجَاءِ، فَالْيَوْمُ الَّذِي ظَنَنْتُهُ لَنْ يَأْتِيَ أَبَدًا أَتَى أَخِيرًا؛ فَسَأُغَادِرُ الْجَزِيرَةَ. وَأَضْحَى سِجْنِي مَوْطِنًا جَمِيلًا، لَكِنْ عَلَى قَدْرِ الرَّاحَةِ الَّتِي عَمَّتِ الْأَرْجَاءَ، إِلَّا أَنَّنِي اشْتَقْتُ إِلَى الْحَضَارَةِ، وَأَرَدْتُ الْعَوْدَةَ لِوَطَنِي.

الفصل الثلاثون

الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ

الْتَقَيْتُ بجمعة أَمَامَ الْمَنْزِلِ الصَّيْفِيِّ وَنَزَلْنَا إِلَى الشَّاطِئِ مَعًا. وَكُنْتُ قَدْ حَزَمْتُ بِالْفِعْلِ الْأَشْيَاءَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي أَرَدْتُ أَخْذَهَا مَعِي: قُبَّعَتِي مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ وَمِظَلَّتِي وَآخِرَ بَبَّغَاوَاتِي الْأَلِيفَةِ، وَبِالتَّأْكِيدِ كُلَّ الْأَمْوَالِ الَّتِي عَثَرْتُ عَلَيْهَا وَاحْتَفَظْتُ بِهَا مُنْذُ كُلِّ هَذِهِ السَّنَوَاتِ سَتَكُونُ الْآنَ ذَاتَ نَفْعٍ كَبِيرٍ!

غَادَرْنَا الْجَزِيرَةَ فِي التَّاسِعَ عَشَرَ مِنْ دِيسَمْبِرَ ١٦٨٦؛ بَعْدَ ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا وَشَهْرَيْنِ وَتِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ نُزُولِي عَلَيْهَا. وَبِحُلُولِ يُونْيُو مِنَ الْعَامِ التَّالِي، وَصَلْنَا إِلَى إِنْجِلْتِرَا. وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَسِيرُ فِي شَوَارِعِ يُورْك، لَمْ أُصَدِّقْ مِقْدَارَ التَّغْيِيرِ الَّذِي حَدَثَ عَلَى مَدَارِ الْخَمْسِ وَالثَّلَاثِينَ سَنَةً الْمَاضِيَةِ؛ فَالْمَدِينَةُ صَارَتْ أَكْبَرَ، وَالشَّوَارِعُ أَكْثَرَ ازْدِحَامًا، أَمَّا أَبَوَايَ فَقَدْ تُوُفِّيَا مُنْذُ سَنَوَاتٍ. وَمَا تَوَقَّعْتُ حَقًّا، فِي أَعْمَاقِي، أَنْ يَكُونَا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، لَكِنِّي حَزِنْتُ عَلَى خَسَارَتِهِمَا بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

بَعْدَ قَضَاءِ بَعْضِ الْوَقْتِ فِي يُورْكَ، قَرَّرْتُ السَّفَرَ إِلَى الْبَرَازِيلِ. فَقَدِ انْتَابَنِي الْفُضُولُ لِأَرَى مَاذَا حَلَّ بِمَزْرَعَتِي؛ لِأَرَى هَلْ لَا يَزَالُ شُرَكَائِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَهَلْ مَزْرَعَتِي لَا تَزَالُ قَائِمَةً.

بَدَأْنَا رِحْلَتَنَا أَنَا وجمعة فِي الْبَحْرِ مُتَّجِهَيْنِ إِلَى الْبَرَازِيلِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَبْرِيلَ سَنَةَ ١٦٨٨. وَقَدِ اخْتَلَفَ الْبَلَدُ أَيَّمَا اخْتِلَافٍ! وَتُوُفِّيَ الْكَثِيرُ مِنْ أَصْدِقَائِي وَشُرَكَاءِ الْعَمَلِ الْقُدَامَى. وَلِحُسْنِ الْحَظِّ أَنَّ وِيلْز، صَدِيقِي الْقَدِيمَ وَجَارِي، كَانَ لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَكَانَ قَدِ ازْدَادَ ثَرَاءً مِنْ نَجَاحِ مَزْرَعَتَيْنَا، وَحِينَ وَصَلْتُ أَنَا وجمعة إِلَى عَتَبَةِ بَابِهِ، فُوجِئَ جِدًّا

لِرُؤْيَتِي؛ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَتَعَرَّفْ عَلَيَّ فِي الْبِدَايَةِ! وَاسْتَعَدْتُ مَزْرَعَتِي، وَجَنَيْتُ رِبْحًا وَفِيرًا حِينَ بِعْتُهَا بَعْدَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ.

بَدَأْنَا سَرِيعًا فِي تَنْفِيذِ خُطَطِ الْعَوْدَةِ إِلَى إِنْجِلْتِرَا، فَقَدْ تُقْتُ إِلَى الْحَيَاةِ الْهَادِئَةِ الْمُطْمَئِنَّةِ، الَّتِي أَرَادَهَا لِي أَبِي مِنْ قَبْلُ مُنْذُ كُلِّ هَذِهِ السَّنَوَاتِ؛ قَبْلَ زَمَنٍ مِنْ شُرُوعِي فِي أَيِّ مُغَامَرَةٍ، وَقَبْلَ زَمَنٍ مِنْ قَضَاءِ مَا يُقَارِبُ عُمْرِي كُلَّهُ حَبِيسًا عَلَى جَزِيرَةٍ مَهْجُورَةٍ. وَلَعَلِّي أَسْتَطِيعُ الْآنَ — فِي شَيْخُوخَتِي — الِاسْتِمْتَاعَ بِالْحَيَاةِ الَّتِي أَرَادَهَا أبي لِي. لَكِنْ عَلَيْنَا، أَنَا وجمعة، الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ أَوَّلًا. وَهَذِهِ الْمُغَامَرَاتُ، يَا أَصْدِقَائِي الْأَوْفِيَاءَ، هِيَ أَحْدَاثُ قِصَّةٍ أُخْرَى لِاحِقَةٍ.


هنداوي